

القرآن ميسورة الفهم قريبة التناول عندهم لجريانها على ما ألفتها أسماعهم وألستهم من أساليب القول وفنون التعبير ، أو لقربهم من صاحب الرسالة محمد ﷺ فكان إذا أشكل عليهم تعبير هرعوا إليه يستفتونه . ثم كان بعض أصحابه ، من بعده ممن ألهموا الحكمة كابن عباس ، مرجعا للفهم والتفسير ، وقد وصفه الرسول بأنه ترجمان القرآن ، حتى روى أن رجلا جاء إلى ابن عمر يسأله عن معنى قوله تعالى : ﴿ أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما ﴾ (١) ، فقال : اذهب إلى ابن عباس ، ثم تعال أخبرني ! فذهب فسأله ، فقال : « كانت السموات رتقا لا تمطر ، وكانت الأرض رتقا لا تنبت ، ففتقت هذه بالمطر ، وهذه بالنبات » ، فرجع الرجل إلى ابن عمر ، فأخبره بجواب ابن عباس . فقال : قد كنت أقول : ما تعجبني جرأة ابن عباس على تفسير القرآن . فالآن قد علمت أنه أوتي علما ، (٢) .

ظل الوضع السابق سائدا طوال القرن الأول من الهجرة ، وشطرا كبيرا من القرن الثاني ، ثم بدت ملامح التغيير بعد أن ضعف اللسان العربي لدى الأجيال الناشئة ، وبعد أن اعتنق الإسلام أعداد ضخمة من غير العرب ، ليس بوسعهم أن يفهموا لغة القرآن ، وأن يفقهوا معاني آياته على وجهها الصحيح ، وبعد أن وفدت على المجتمع الإسلامي تيارات فكرية أجنبية ، في وقت كان يموج فيه بأفكار أخرى من داخله ، بتأثير احتدام الخلاف والجدل بين الفرق الإسلامية المختلفة وكان من أهم هذه الأفكار قضية الإعجاز . وهكذا تعددت مناحي التفكير ، وفتحت جوانب جديدة لم تطرق من قبل ، وحظى القرآن الكريم بقسط وافر منها ، فقد أضحت محورا للدراسات تمضي في اتجاهين متقاربين إلى حد التداخل في بعض الأحيان ؛ اتجاه يستهدف فقه نصوصه ، والرد على الطاعنين فيها والمعترضين عليها ، واتجاه آخر يسعى إلى اكتشاف خصائصه الأسلوبية التي كانت - وما تزال - أساس التحدى ومناطق الإعجاز .

(١) سورة الأنبياء : آية ٣٠ .

(٢) الزرقاني ، كتاب مناهل العرفان في علوم القرآن ج ١ ص ٤٨٣ - ص ٤٨٤ الطبعة الثالثة دار إحياء

الكتب العربية عيسى الحلبي ١٣٧٢ هـ .